الفصل الرابع عشر

في الوطن، هناك

عـاد النبي ﷺ إلى مكـة منتصراً وقد أثار عفوه الـذي أظهره حتى إلى ألـد خصومـه، ومـع أن الكثيرين قد أهانـوه وقاتلوه بـل حتى قتلوا أفـراداً مـن أسرتـه وأصحابه الحميمين، فقـد قابلهم بالعفـو ونسيان الماضـي والحماية، وقـد ذكر القرآن أولئـك ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾[1]. كمـا سبـق أن أعلن الوحي بأنه عندما ينتصر هؤلاء الناس فإنهم سيظلون ملتزمين بكرامتهم الإنسانية وسلوكهـم، فوصفهـم ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾[2].

وكان الرسـول ﷺ القـدوة الحيـة لهـذا النبل، فهو لم يكـن يميل إلى الانتقام أو الثروة أو السلطة، فقد دخل مكة محنياً رأسه لله وذهب ليصلي في الكعبـة ويسجد في المسجد الحرام، وحطم الأصنام في عملية تذكر بما فعلـه إبراهيـم عليه السلام، ونطق بعدة أدعية يعبر فيها عـن ثقته بالله الواحد الأحد وشكره له، ثم قام أخيراً بإرساء قواعد السلام في مدينة مكة.

حُنين

كان محمـد ﷺ يـدرك بأنـه لايزال عليـه مواجهة عدد مـن الأخطار التـي تتهـدد الجماعـة الإسلاميـة، فلم تكن جميـع القبائل قـد اعترفت

بسلطة النبي ﷺ، وقد رأى بعضهم أنه آن الأوان للإطاحة به، وقد راجت إشاعات بأن قبائل هوازن وحلفاءهم قد حشدوا أكثر من عشرين ألف رجل في شرق مكة وأنهم يستعدون لمهاجمة المسلمين، وقد أرسل النبي ﷺ مستطلعين فعادوا مؤكدين تلك الإشاعات، فكان ينبغي على المسلمين تهيئة أنفسهم على وجه السرعة، فتم حشد جميع المسلمين الذين كانوا قد أتوا من المدينة وانضم إليهم ألفاً من قريش(3). وهكذا انطلق محمد ﷺ ومعه جيش مؤلف من اثني عشر ألف من الرجال وهو أكبر عدد قاده في حياته. وقد أعرب بعض الصحابة، مثل أبي بكر رضي الله عنه، عن الثقة بالنفس نظراً لأعدادهم، الأمر الذي استاء منه النبي(4).

كان يقود جيش هوازن محارب شاب اسمه مالك بن عوف النضري، الذي كان قد كون لنفسه سمعة راسخة في الجزيرة العربية، وكان قد أمر جنوده باصطحاب نسائهم وأطفالهم ليؤثروا على العدو بعددهم ويثيروا حماس الجنود، فذهب إلى وادي حنين الذي لابد للمسلمين الآتين من مكة أن يعبروه وقام في جنح الليل بتوزيع عدد كبير من جنوده ليتمركزوا في الوهاد على جنبي الوادي.

هؤلاء الرجال كانوا لا يُرون من الوادي، ونشر بقية الجيش مقابل الممر الضيق بحيث كانوا يواجهون المسلمين القادمين من أسفل الوادي وبالتالي فقد تعمد وضعهم في أماكن حيث يمكن للمسلمين رؤيتهم فيها، كان المسلمون يتقدمون في ضوء الصباح الباكر، عندما أمر مالك فجأة رجاله المختبئين في الوهاد بمهاجمة جيش النبي ﷺ من جناحي الجيش، كانت المفاجأة تامة، ولم يتمكن خالد بن الوليد رضي الله عنه، الذي كان يتقدم الجيش،

من صد الهجوم: فقد أدى هذا الهجوم إلى هزيمة عامة وحاول المحاربون المسلمون حماية أنفسهم والتراجع بحالة من الفوضى التامة، وقد شاهد النبي ﷺ، الذي كان على مسافة في الخلف في فضاء أكثر انفتاحاً، ما كان يحدث؛ فقام على الفور بجمع صحابته الأقربين وأخذ ينادي المسلمين بمساعدة العباس رضي الله عنه، الذي كان له صوت جهوري أعلى من صوت النبي ﷺ. كان الاثنان يصرخان: «يا أصحاب الشجرة» ليذكروا المقاتلين بولائهم لما بايعوا النبي ﷺ عليه عندما جرى توقيع معاهدة الحديبية، وقد أدرك هؤلاء ما كان يجري واستجابوا لنداء النبي ﷺ مرددين: «لبيك! لبيك!» وتتابعت أعداد الذين جاءوا للانضمام إليه وأعادوا تنظيم أنفسهم بغية شن هجوم معاكس.

وطلب النبي ﷺ بعض الحجارة: وكما فعل في معركة بدر، رماها نحو هوازن ودعا الله: «اللهم: أنجز لي وعدك». ثم أخذ المسلمون يتوجهون نحو العدو بحماسة ملتهبة أثارت الدهشة لدى جميع جنود مالك الذين لم يكونوا يتوقعون مثل هذا الهجوم المعاكس المفاجئ على هذا النطاق الواسع. وكان بين المسلمين امرأة اسمها أم سليم الرميسة، شاركت في القتال مع زوجها الذي أظهر تصميماً شاركه فيه الجميع[6]. لقد جاء الآن دور أعداء المسلمين في الاضطرار إلى الانسحاب ثم الفرار وملاحقة المسلمين لهم، ولجأ مالك أخيراً إلى الطائف لدى بني ثقيف، بينما توارى الآخرون في الجبال، لقد فقدوا الكثيرين من الرجال وتكبدوا هزيمة مريرة بعد أن دارت عليهم الدوائر، وقد ذكر الوحي المؤمنين لاحقاً بالجانب الواقعي والعاطفي والروحي المختلف في ذلك القتال:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۢ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًۭٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[7].

ومع أن عدد الذين قتلوا كان كبيراً إلا أن النصر كان حاسماً وكلياً وكانت الغنائم التي جمعها المسلمون ضخمة، فبالنسبة للاستسلام وضع النبي ﷺ النساء والأطفال في مكان واحد وأمر بحراستهم وإطعامهم بأفضل ما يكون، ثم أمر بحراسة المطايا والغنائم دون توزيعها على الفور، ولم يتمهل بل أمر رجاله بالسير إلى الطائف، التي التجأ إليها مالك، وبدا أن الطائف أقل قدرة على المقاومة في المنطقة، غير أن بني ثقيف كانوا مجهزين جيداً بالعدة والطعام والأسلحة، فقام جيش المسلمين بمحاصرة القلعة، لكن سرعات ما اتضح بأنه لن يتمكن من إجبارهم على الخروج بهذه الوسيلة، فبعد أسبوعين قرر المسلمون الرحيل والعودة إلى الجعرّانة، حيث تم احتجاز أسرى حنين والغنائم.

أسلاب الحرب

كان قد تم وضع النساء والأطفال الذين تم أسرهم في مكان مغلق فسيح، بمنأى عن الشمس وكان يقدم لهم الطعام الملائم إلى أن عاد محمد ﷺ، وعندما رجع ورأى أن معظم الأسرى يلبسون ثياباً رثة أمر بأن يؤخذ مال من الغنائم لشراء ثياب جديدة من السوق لكل أسير. ثم قرر

توزيع الأسلاب لكنه لم يتصرف بالأسرى الذين أصبحوا أسرى حرب، إذ إنه كان يعتقد بأن هوازن سترسل بالتأكيد وفداً يطلبهم.

بدأ بتوزيع الغنائم ولدهشة الأنصار فإنه أعطى القرشيين، لاسيما أبا سفيان وحكيم (ابن أخ خديجة ـ رضي الله عنها ـ الذي دخل للتو في الإسلام)، جزءاً مهماً من الغنائم، وفعل ذلك أيضاً مع صفوان وسهل اللذين قاتلا في حنين لكنهما ظلا مترددين في دخول الإسلام، وقد نزل الوحي يأمر النبي بإبقاء جزء من الغنائم لـ «المؤلفة قلوبهم». ولم يكن ذلك وسيلة لإغراء الناس باعتناق الإسلام بل كان الغرض منه أن يقوي، من خلال عطايا مادية، إيماناً عبّر عن نفسه نوعاً ما لكنه ظل هشاً[8]. كان النبي ﷺ يعرف أن شعور صفوان وسهيل كان رقيقاً تجاه الإيمان وأنهما قاتلا بشجاعة مع المسلمين، لذا فقد أعطاهما كميات كبيرة من الغنائم ولم يطلب منهم الدخول في الإسلام. فموقف العفو الذي أظهره عند احتلال مكة، ثم ما بدر منه من شجاعة وثبات أثناء القتال، ثم ما أظهره من سخاء بعد المعركة ـ كل ذلك أقنعهما بأنه نبي حقاً، أما بالنسبة لأبي سفيان، فقد كان النبي ﷺ يعرف، كما رأينا، مدى أهمية المركز الاجتماعي والمكانة بالنسبة له، فثبت محمد ﷺ مركزه، أما حكيم، فإنه أعرب عن بعض التفاخر عندما أُعطي حصته من الغنائم: كانت حصة ضخمة، وبدا أنه فرح بالكسب المادي أكثر من أي شيء آخر، وقد أضاف محمد ﷺ إلى هذا العطاء درساً روحياً أساساً، مذكراً حكيماً بمقاومة التفاخر بامتلاك الثروة مضيفاً «اليد العليا خير من اليد السفلى»[9].

فقد ذكـره بذلك أن الذين ينفقون بسخاء ويهتمون بالفقراء، ويعطون من أنفسهـم ومن ممتلكاتهم، لهم مركز روحي أرقى بكثير من الذين يأخذون ويُستعطـون، كمـا نصحه بأن يعطي بعض مقتنياتـه لأسرته وجميع الذين يعيلهم، كما أعطاه درساً آخر بأن يأخذ بطريقة أكثر كرامة ليعطي بمزيد من التواضع.

مضـت سبعة أيام منذ استسلام العـدو ولم يأت أحد من هوازن لطلب إعـادة نسائهـم وأطفالهـم لهـم، فظن محمـد ﷺ أنهم لن يأتـوا فقرر توزيع الأسرى بـين مسلمي قريش (الذين حصلوا أيضاً على حصة أكبر) والأنصار، ولم يكد ينتهي من التوزيع حتى وصل وفد هوازن، فأوضح النبي ﷺ لهم أنه انتظر مجيئهم ولكن بما أنهم لم يأتوا فقد وزع الأسرى. وقال إنه سـوف يشفع لهم ويطلب من المسلمين إرجاع أسراهم إذا أرادوا. وبعد بعض الـتردد، تخلى جميع المقاتلين عـن أسراهم إلى وفـد هوازن. وقبل مغادرتهـم، سأل النبي ﷺ عن مالك، رئيسهم، فقيل له إنه لجأ إلى بني ثقيـف، فحملهـم رسالة له: إذا جاءه مالك مسلمـاً، فإنه سيعيد له أسرته وكافـة ممتلكاتـه فضلاً عن مئة مـن الإبل[10]. وقد حـدث كل شيء وكأن النبـي ﷺ قـد اطلع على قلـب مالك عندما واجهه في حنـين، إذ إنه حين سمـع مالك بعرض النبـي ﷺ لاذ بالفرار من قلعـة الطائف ليلاً، وجاء إلى محمـد ﷺ، وقـام على الفور بالنطـق بالشهـادة. ولم يكن قد مضى عليـه وقت طويل منذ دخوله في الإسلام عندما أظهر له النبي ﷺ ثقة لا تصـدق وضعها فيه حيث عهد إليه بقيادة جميع أفراد هوازن الذين دخلوا في الإسـلام وأمرهـم بالذهـاب إلى الطائـف وإنهاء مقاومـة بني ثقيف،

فانطلق أفراد هوازن على الفور. لقد أصبح مالك، الذي كاد، قبل أقل من شهر، يتسبب في القضاء على جيش محمد ﷺ، الآن مسلماً يقود حملة إسلامية تهدف إلى الإطاحة بحلفائه السابقين، لقد كانت الثقة التي أولاها له النبي ﷺ لا تصدق، لكن الأيام والسنوات اللاحقة أكدت حدس النبي ﷺ: فلم يقم مالك بتنفيذ مهمته بنجاح فحسب، بل بقي مخلصاً ومتفانياً في التزامه بالإسلام.

كان الأنصار يشاهدون ما قام به النبي ﷺ وقد تملكتهم الدهشة، حيث إنه في نهاية الأمر كانت جميع كافة الغنائم تقريباً قد وُزِعت على قريش. وأخذ بعضهم يفصح عن خيبة الأمل أو حتى الاستنكار، حيث بدا لهم أن محمداً ﷺ يفضل قومه، رغم كل ما فعله أهل المدينة له عندما كان بحاجة إليهم، وعندما جاء إليه سعد بن عبادة رضي الله عنه مندوباً عن الأنصار وأعرب عن شكاواهم، أصغى إليه النبي ﷺ ثم طلب منه أن يجمع جميع مسلمي المدينة ليتحدث إليهم[11]. تحدث إليهم عن ديون كل منهم تجاه الآخر، فقال لهم إنهم مدينون له بالهداية وأنه مدين لهم بما قدموه له من حماية من الاضطهاد، وقال إنه لم ينس أياً من ذلك، وطلب منهم ألا ينزعجوا من الطريقة التي وزع بها الغنائم لأنها، على أي حال، وسيلة يتألف بها قلوب بعض الناس، ليس إلا، فمحبته لهم لا تقاس بالتأكيد بكمية الأسلاب التي حصلوا عليها، لقد أدى بهم حبهم للمكاسب الدنيوية إلى نسيان معنى الحب الحقيقي لله وفي الله، وهو الحب الذي يتجاوز مكاسب وحياة هذه الدنيا، فالناس من قريش كانوا سيذهبون بالشاة والبعير بينما سيذهب الأنصار بالنبي ﷺ، الذي قرر أن يقيم في المدينة، المدينة التي اختار الإقامة فيها، وأضاف يقول:

«لو سلك الناس وادياً وسلـك الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار»[12].

أثـار كلامه مشاعر الأنصار حتى إن الكثيرين منهم أخذوا يبكون، لأنهم أدركـوا كم كانوا على خطـأ في تفسير موقف النبي ﷺ وعلامات ولائه. لقـد كان وجـوده معهم علامـةً على حبه لهـم، في حـين أن الغنائم التي وزعها كانت مجرد دليل على أنه كان يعرف أن بعض القلوب كانت لاتزال متعلقة بأوهام هذه الدنيا.

ثم قرر مغادرة الجعرّانة لأداء العمرة قبل العودة إلى المدينة، كان قد جاء إلى تلك المدينة لاجئاً، لكنه يشعر الآن أنها على الرغم من أن ثقافتها وعاداتها كانـت مختلفة جداً عن ثقافة وعادات مكـة، حيث سبق له أن عاش فيها أكثر من نصف قرن قبل اضطراره لمغادرتها، لقد استقر به المقام في بيئته الجديدة مـن خلال مراعاة عادات السكان وتقاليدهم وتركيبتهم النفسية وآمالهم ثم دمـج الكثير من هذه الأبعاد دمجـاً متكاملاً في شخصيته، لقد أحب الأنصار حباً عميقاً روحياً تجاوز القبيلة والعشيرة أو الروابط الثقافية.

عندما عاد النبي ﷺ إلى المدينة وأخذ يواصل تعاليمه أخذته الدهشة لرؤية الشاعر كعب بن زهير الذي كان في السابق يسخر موهبته الشعرية للهـزء به وتسفيه قوله بأنه رسول الله، وكان كعب منذ بعض الوقت يقيم مع أحد معارفه في المدينة ويراقب حياة المسلمين اليومية، وكان يعرف أن حياتـه قد تكون معرضة للخطر، إذ إنه إذا تعـرف عليه بعض الصحابة فإنهم لن يترددوا في قتله، وقد سمع أن النبي ﷺ يعفو عن الذين يأتون إليه، بصرف النظر عما كان عليه ماضيهم أو سلوكهم، ففي أحد الأيام، وبعـد صلاة الفجر، ذهـب إلى النبي ﷺ وسألـه إن كان من الممكن أن

يعفو عن كعب بن زهير إذا جاء إليه، فأجاب النبي ﷺ بالإيجاب، فذكر كعب اسمه عندئذ، فاندفع أحد الأنصار ليقتله لكن النبي ﷺ أوقفه وقال له إن كعباً جاء تائباً ولم يعد مثل ما كان عليه سابقاً. ثم قام الشاعر وألقى على النبي ﷺ بعض أبيات تعبر عن احترامه وحبه للنبي ﷺ ويطلب فيها العفو، تأثر النبي ﷺ تأثراً عميقاً، وعندما انتهى كعب من إلقاء شعره، ألقى النبي ﷺ عليه عباءته ليعبر لا عن أنه صفح عنه فحسب بل أيضاً عن ثنائه على شاعريته المتميزة، وقد كان لمحمد ﷺ ذوق جمالي متميز وكان يحب الفصاحة وموسيقى الكلام، كانت الأبيات الشعرية التي تعبر عن الجمال وتنقل عمق المشاعر والروحانية، وتؤكد على حقيقة الإله الواحد الأحد فضلاً عن محبة الكائنات، كل هذا كان جزءاً من عالمه الطبيعي وأعمق خلفية ثقافية له، كان ذلك الفن وتلك الروحانية في الكلام طيلة حياته وسيلة للتعبير عن أعماق الذات على أمل الارتقاء بشكل طبيعي إلى الله.

تبوك

عندما ولدت ماريا ـ رضي الله عنها ـ إبراهيم، أعرب النبي ﷺ عن فرحة كبيرة لدى سماع أنباء ولادة الطفل، وقد أولم بهذه المناسبة ثم أودع الطفل لدى مرضعته في شمال المدينة، كما كانت عليه العادة في المدينة، وفي هذا الوقت كان النبي ﷺ يقوم بزيارات مطردة لابنه. وأصبحت الحياة في المدينة أكثر سلاماً بكثير، مع أنه كان لابد من تنظيم بضع حملات في المنطقة، لاسيما بغية العمل على عدم احتفاظ القبائل التي دخلت حديثاً في الإسلام بالأصنام، وعدم القيام بمحاولات للتوفيق

بـين عبادة الأصنـام والإسلام، وهو مـا كان النبـي ﷺ يحاربه دائماً، لاسيمـا، كمـا رأينا، حيـث إن الوحي أمره بـأن يقول لخصومـه وللذين ينكـرون حقيقة الإسـلام: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[13]. كان لأنباء انتصار البيزنطيين على الفرس بعد بضعة أشهر أثر مهم على المسلمين، إذ أن الوحي قد تنبأ بانتصارهم قبل بضع سنوات من الحدث، وقد جاء في سـورة الروم ذكر الهزيمـة (التي حدثت قبل مغـادرة المسلمين لمكة) التي سيليها انتصار البيزنطيين في بضع سنين[14].

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾[15].

فالأحداث لم تثبت الوحي القرآني فحسب، بل إن أنباء أفول قوة الفرس كانـت تبشر باتفاقات محتملة مع النصارى في الشمال، ولم يكن المسلمون ليكتشفـوا ذلـك إلا بعد بضعة أسابيـع، وفي الوقت الراهـن، كانت الأنباء الـواردة من الشمال تثير القلق الشديد، فكل شـيء كان يوحي بأن جيوش هرقل البيزنطية قد تحالفت مع القبائل العربية وأنهم كانوا يستعدون معاً لشن هجوم واسـع النطاق على محمد ﷺ، «إمبراطـور العرب الجديد». كان لابـد مـن رد فعل فـوري من جانـب المسلمين، وكانت الأمـور والحملة على درجة كبيرة من الخطورة حيث إن النبي ﷺ أخبر جميع الصحابة، وللمـرة الأولى، بمقصده، فقد كان عليهـم التوجه إلى الشمال لشن حرب وقائيـة استباقـاً لتقـدم جيوش العـدو وإذا دعت الضـرورة لمفاجأتهم في

أرضهـم. لم يكـن فصـل السنة ملائمـاً وكان علـى الجيشـ مواجهة حر شديد إلى أن يصل إلى الشمال، كانت التعبئة عامة وطلب النبي ﷺ من الصحابة الإسهام بكل ما يستطيعون لتغطية تكلفة الحملة، قدم عمر رضي الله عنه نصف ماله وفهم درساً في نكران الذات من أبي بكر رضي الله عنه الذي وضع كل ما يملكـه تحت تصرف النبي ﷺ. وقدم عثمان رضي الله عنه مطايا لنصف الجيش، وتمـت مصادرة كافـة الجمال والخيـل في المنطقة، لكـن كل ذلك لم يكن يكفي لسد حاجات جميع الجنود فاضطر النبي ﷺ إلى رفض طلبات بعض الصحابة في الاشتراك في الحملة، فبكى بعضهم حيث إنهم كانوا يعرفون مـدى أهميـة الحملة. كان جيش العدو على درجة مـن القوة المتوقعة حيث إن مستقبـل الجماعـة كان في خطـر، انطلق الجيش في نهايـة السنة 630 (الشهـر التاسع للهجرة) وبلغ عدده ثلاثين ألفاً من المقاتلين بقيادة النبي ﷺ. وقـد طلب من علي رضي الله عنه البقاء في المدينة مع أسرته، فسخر المنافقون منـه، فلم يستطع تحمل ذلك وسرعان ما لحـق بالجيش في أول توقف له، غير أن النبي ﷺ أعاده وطلب منه أن يكون مثلما كان هارون لأخيه موسى ـ عليهما السلام ـ الوصي على شعبه أثناء غيابه.

كان الحـر شديداً، كما هـو متوقع، وكان السير إلى الشمال صعباً. وقد فضل أربعة من صحابة النبي ﷺ المخلصين البقاء في المدينة، لما يعرفونه من صعوبة الرحلة، وشعر أحدهم -أبو خيثمة رضي الله عنه- بندم شديد وبعد نحو عشـرة أيام قرر اللحاق بالحملـة. فوصل عندما كان الجيش قد عسكر في تبـوك، وقد سر النبـي ﷺ كثيراً لوصوله حيث إنـه شعر بالحزن لتخلف الصحابـة الأربعـة، وهو ما لا يمكن أن يفسـر إلا بالجبن أو بالخيانة، وقد

صفح النبي ﷺ عن أبي خيثمة رضي الله عنه عندما اعترف بندمه وبالحاجة الملحة التي شعر بها للالتحاق بالجيش، لكن هذا لم يكن حال المؤمنين الثلاثة الآخرين، الذين كان من بينهم كعب بن مالك. فقد فضلوا البقاء في المدينة لإدارة أعمالهم فيها[16].

بقي جيش المسلمين في تبوك عشرين يوماً، لكن اتضح تدريجياً أن إشاعات الهجمات من الشمال لم يكن لها أساس من الصحة، فلم يكن يوجد أي قبيلة تستعد للحرب، ولم يوجد أي علامة على وجود البيزنطيين في المنطقة، ومع أن الحملة كانت شاقة جداً إلا أنها لم تكن من دون فائدة، فالأعداد الكبيرة من جيش المسلمين كان لها وقع كبير في جميع أنحاء الجزيرة، وأجبرت القبائل الشمالية على إدراك مدى قدرة النبي ﷺ على حشد الجنود ومدى حركية قواته التي لا تصدق، وتمكن النبي ﷺ، وهو في تبوك، من إقامة تحالفات مع قبيلة نصرانيته وأخرى يهودية: حيث احتفظت كل قبيلة بدينها مع قبول دفع الجزية مقابل حماية الجماعة الإسلامية لهما من الهجوم، وهكذا فقد فُهِم أن الجزية هي ضريبة عسكرية جماعية تدفعها قبائل لم يكن يجب عليها مشاركة المسلمين في أعمالهم الحربية، ولكن مقابل ذلك كان يجب على سلطة المسلمين ضمان الدفاع عنهم وحمايتهم وبقائهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك[17]. من تبوك أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه ليتوغل في الشمال لمحاصرة قلعة نصرانية وإقامة تحالف مماثل بغية تأمين الطريق المؤدية إلى العراق وسوريا، وقد تكللت كافة هذه العمليات بالنجاح وعاد النبي ﷺ إلى المدينة مع جيش المسلمين.

عند وصوله أُخبر بوفاة ابنته أم كلثوم ـ رضي الله عنها ـ فشعر بحزن عميق وكذلك فعل عثمان بن عفان ﷺ الذي فقد زوجة للمرة الثانية (كان قد تزوج اثنتين من بنات النبي ﷺ). أما بالنسبة للصحابة الثلاثة فقد طلب النبي ﷺ منهم الابتعاد عنه وأمر بألا يكلمهم أحد من الصحابة إلى أن يقضي الله أمره فيهم، ومر خمسون يوماً قبل نزول وحي بالعفو عنهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾[18].

عندما سمع كعب النبأ سأل النبي ﷺ، الذي كان وجهه يطفح بالفرح، إن كان العفو جاء من عنده أو من عند الله، وقال له النبي ﷺ بأنه نزل به الوحي، واستقبل النبأ بالفرح جميع الصحابة الذين كان عليهم مقاطعة إخوانهم الثلاثة، كما أن الوحي انطوى على درس عميق، إذ إنه بين مدى الأنانية في تفضيل إدارة الشؤون الشخصية بدلاً من الالتزام، بالجسد والروح والمال، بالدفاع عن الجماعة الإسلامية الروحية، وقد انطوى هذا الدرس على بعد آخر وهو أن التزام الضعيف الرعديد ـ الذي يكاد يكون خيانة ـ يمكن أن ينال الصفح عندما تعود القلوب بصدق إلى الواحد الأحد.

الوفود

أطلق على السنة التاسعة للهجرة اسم «عام الوفود»؛ فقد أصبحت الجماعة الإسلامية الآن تتمتع بالقوة والسلطة بحيث إنه جاءت وفود من كافة أنحاء الجزيرة لإقامة تحالفات أو توقيع مواثيق[20]. كان أول وفد

قدم إلى النبي ﷺ هو وفد بني ثقيف، حيث إن مالكاً كان قد ضرب عليها حصاراً شديداً حال دون إبرام أي تحالفات مع القبائل المجاورة (التي اعتنق معظمها الإسلام على أي حال أو وقعوا ميثاقاً مع محمد ﷺ)، وأعلن الوفد عن الرغبة في الدخول في الإسلام، لكنهم كانوا يريدون التفاوض بشأن بعض بنود بشأن دينهم وممارستهم: كانوا يريدون الاحتفاظ بصنم اللات والإعفاء من الصلاة، فرفض النبي ﷺ المساومة بشأن هاتين النقطتين، كما كان يفعل كلما سئل بهذا الشأن، إذ إن قبول الإسلام يعني عبادة الله الواحد الأحد وحده والصلاة له وفق المعايير التي جاء بها الوحي وأقرتها السنة، وفي نهاية المطاف قبلوا شروط الاتفاقية.

وجاءت أيضاً وفود أخرى من قبائل نصرانية ويهودية إلى النبي ﷺ ولم يجبرهم على الدخول في الإسلام، فكما فعل مع القبيلتين في الشمال، أبرم معهم حلف مساعدة: فهم يدفعون الجزية ويقوم محمد ﷺ وجيشه بحمايتهم والدفاع عنهم، وهكذا، فقد اتضحت الرسالة في أنحاء الجزيرة: فالقبائل التي تقبل الإسلام يجب أن تتخلى عن أي فكرة تتعلق بالتوفيق بين دينهم والإسلام؛ ذلك لأن النبي ﷺ لا يتفاوض بشأن أسس الدين. وما إن يتم النطق بالشهادة حتى يتعين تدمير الأصنام وتنفيذ أركان الإسلام من صلاة وصيام ودفع زكاة وحج، وعندما كانت القبائل تريد الاحتفاظ بتقاليدها، كانوا يبرمون اتفاقاً يتضمن بنوداً واضحة مماثلة: دفع الجزية مقابل الحماية، وكان النبي ﷺ يدع العشائر وزعماءها يختارون بحرية هذين البديلين، وهو ما فعله الكثيرون منهم في الأشهر التي أعقبت العودة من تبوك.

كان موعد الحج يقترب وطلب محمد ﷺ من أبي بكر رضي الله عنه أن يحج بالناس إلى مكة[21]. فانطلقوا خلال الأسابيع اللاحقة. وفيما كانوا في الطريق نزل على النبي ﷺ وحي مهم بشأن مكة ولاسيما الشعائر قرب الكعبة، فأرسل علياً رضي الله عنه ليلحق بالحجيج وينقل إليهم رسالة الوحي التي وردت في الآيات الأولى من السورة رقم 9 (السورة الوحيدة في القرآن التي لا تبدأ بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم)[22]. أولاً، أعلنت الآيات بأوضح العبارة أن الطقوس التي كانت تمارس سابقاً حول الكعبة (حيث كان بعض الحجاج يطوفون وهم عراة) لم تعد مقبولة وأن عبدة الأصنام أمامهم أربعة أشهر للاختيار بشأن مستقبلهم ـ إمَّا أن يتوقفوا عن ممارسة طقوسهم قرب الكعبة، أو يغادروا المنطقة كلياً، أو يدخلوا في الإسلام. بعد هذه المهلة سوف يقاتلهم المسلمون، عدا أولئك الذين أبرموا حلفاً (تُحترم بنوده بالطبع) أو طالبوا صراحةً بالحماية (التي تمنح لهم).

كانت الرسالة حاسمة وقررت أن الكعبة، المسجد الحرام، أصبحت مخصصة حصرياً لعبادة الواحد الأحد، وأن المسلمين وحدهم هم الذين يمكنهم دخولها[23]. جاء في الآيات ما يأتي: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾[24]. وقد فهم معظم المسلمين، ومعظم العلماء بعدهم، أن هذا الحظر ينطبق فقط على الحدود المقدسة في مكة، لا على المساجد الأخرى التي يمكن أن يدخلها النساء والرجال من غير المسلمين[5] إن ما نصت عليه الرسالة هو الإرساء الواضح لقواعد عبادة الواحد الأحد، أي التوحيد، بوصفه العبادة الممكنة الوحيدة في المركز، قرب بيت الله، الذي يتوجه إليه المسلمون من جميع أنحاء العالم.

إبراهيم

في السنة العاشرة مرض إبراهيم الصغير ـ الذي كان عمره سنة ونصف تقريباً ـ مرضاً شديداً، ففي ذات الوقت الذي كان يتم فيه إرساء قواعد دين الواحد الأحد في جميع أنحاء الجزيرة حيث كانت المحن تتناقص بشكل ثابت وعدد الذين يدخلون الإسلام في ازدياد متواصل، رأى النبي ﷺ ابنه الوحيد يغادر الحياة ويغادره، كان يزوره كل يوم ويقضي الساعات بجانبه. وعندما لفظ الطفل أنفاسه الأخيرة، أخذه النبي ﷺ بين ذراعيه وضمه إلى صدره والدموع تنهمر من عينيه، تعبيراً عن حزنه العميق، وقد دُهِش عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وهو من صحابته المخلصين، لهذا البكاء لأنه كان يظن أن النبي ﷺ كان قد منع من هذا التعبير عن الحزن، لم يستطع النبي ﷺ أن يتكلم، في أول الأمر، ثم أوضح له بأن الحظر يتناول مظاهر الحزن المبالغ فيها، على شكل العويل أو السلوك الهستيري، ولكن ليس التعبير الطبيعي عن الحزن والألم، ثم عبر عن حزنه بكلمات أصبحت، في الواقع، درساً روحياً، حيث أعلن بأن دموعه كانت «علامات تدل على الحنان والرحمة». وأضاف ملاحظة انبعثت من خبرته، ولكنها تنطبق على الحياة اليومية لكل مسلم، «من لا يرحم لا يُرحم»(26). ففي لحظات الحياة الصعبة فإن الرقة والرأفة والرحمة والتعبير عن التعاطف التي يقدمونها لبعضهم تقربهم من الواحد الأحد، الرحمن الرحيم، فمن خلالها يصبح الله قريباً من قلب المؤمن ويعطي المؤمن ما أعطاه لأخ أو أخت في الإنسانية، قد تأثر النبي ﷺ كثيراً ولم يتردد في إظهار حزنه والتعبير عنه، فأضاف: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول ما يسخط الرب»(27). لقد امتحنه ربه ثانية في إنسانيته ورسالته، لقد فقد كثيراً من أحبابه ـ أصحابه وزوجته

خديجة ـ رضي الله عنها ـ وثلاثاً من بناته وثلاثةً من أبنائه[28]. لقد كانت حياته تخالطها الدموع لكنه ظل رقيقاً في قلبه وثابتاً في رسالته. كانت هذه الكيمياء من الرقة والثبات هي التي رضي عنها الأقرب إلينا من حل الوريد، ففي ذلك الوقت، في السنة العاشرة للهجرة، بدا العالم أنه ينفتح على رسالة محمد، وبدا أن مصير محمد ﷺ الإنساني قد يختزل في ذلك القبر الصغير الذي ووري فيه جسد إبراهيم، الذي صلى عليه، لقد كان النبي ﷺ واحداً من المصطفين، وظل النبي ﷺ بشراً.

بعد بضع ساعات من عودته من المقبرة حدث كسوف للشمس، وقد سارع المسلمون إلى قرن الكسوف بموت طفل النبي ﷺ واعتبروا ذلك معجزة، نوعاً من الرسالة من الله إلى نبيه، لكن محمداً ﷺ وضع حداً لكافة تلك التفسيرات وقال مشدداً: «الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد أو حياته»[29]. وهكذا فقد ذكر محمد ﷺ أصحابه بحقيقة الأشياء وعدم ارتكاب أخطاء وتجنب الوقوع في الخرافات. لقد كان هذا، لهم وله، درساً روحياً في التعقل والتواضع: كان على البشر، ومن بينهم النبي ﷺ أن يتعلموا كيف يفارقون أحبتهم ويرونهم يرحلون، بصمت وبتعقل في جو من عدم المبالاة لنظام الأشياء. إن اختبار الإيمان والبشرية الذي جعل النبي ﷺ يذرف الدموع كان على وجه التحديد يتكون من التعلم، في قلب أبدية الخلق والأطوار اللامتناهية، كيفية إيجاد القوة في مواجهة محدودية ما هو إنساني والفراق المفاجئ والموت، إن آية وجود الواحد الأحد عند وفاة شخص ما لا تكمن في حدوث أي معجزة بل في دوام النظام الطبيعي، في أبدية خلقه الذي يتجلى هنا وهناك في مرور المخلوقات، الذين يأتون ويرحلون.

الصفح والصدق

في اللحظة التي كان فيها إنجاز رسالته قد وصل بوضوح إلى مرحلته الأخيرة ظل النبي ﷺ يظهر نبل روحه التي أدهشت وجذبت أعداءه السابقين سواء أكانوا أفراداً أم عشائر كاملة، الذين أتوه الآن بأعداد غفيرة، ومع أنه ظل منفتحاً إلا أنه كان يعلم بأن عليه أن يلزم جانب الحذر من بعض الأفراد أو الجماعات، لقد تعلم الحذر والحيطة من خلال تجربته مع بني غنم بن عوف، ومن الوحي الذي جاء بعد ذلك، فقد كان بنو غنم قد طلبوا منه، قبل مغادرته إلى تبوك، أن يدشن لهم مسجداً كانوا يريدون إقامته في قباء[30]. وكان قد انشغل بالإعداد لحملة تبوك وقرر أن يذهب إلى قباء بعد عودته من تبوك، وعرف لاحقاً أن المشروع كان عبارة عن حيلة دبرها أحد المنافقين المعروف باسم أبي أمير، وأكد الوحي له هواجسه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾[31]. كان أبو أمير يريد بناء مسجد بغية جذب المؤمنين من مسجد آخر في المنطقة، لمجرد إشاعة الفرقة وممارسة نفوذه، فمن خلال التظاهر بالإيمان والإخلاص، حاول بعض الأفراد الحصول على الامتيازات والسلطة ولم يترددوا في محاولة استخدام النبي ﷺ من أجل تحقيق هذا الهدف، مثل هذه الأوضاع كانت تحدث بشكل أكثر تواتراً مع نمو الجماعة.

وبالرغم من ذلك، ظل محمد ﷺ قريباً جداً من الناس وعلى استعداد دائم لاستقبال النساء والرجال الذين كانوا يريدون تعلم الإسلام أو الذين

كانـوا يبحثون عن الحقيقـة، لقد صفح كثيراً عن أولئك الذين وقفوا ضده في مواقـف الصراع أو الحرب، وكان الآن يظهر الكثير من الصبر والمحبة العميقـة لأولئـك الذيـن كانوا يجاهـدون، في وقـت السلم، ضـد أنفسهم وقلوبهم لبلوغ ضالتهم الروحية وإيجاد الطريق الذي يمكن أن يقودهم إلى الواحد الأحد، فقـد كان يشاهدهم ويجيب عن أسئلتهم ويرافق تقدمهم، سواء أ كان سريعاً، متردداً أم في بعض الأحيان متمرداً أيضاً. لدى عودته من حنـين، قال النبي ﷺ: «لقـد رجعنا من الجهـاد الأصغر إلى الجهاد الأكـبر». وقد سـأل أحد الصحابة: «مـا الجهاد الأكبر، يـا رسول الله؟». فأجاب: «مجاهدة النفس»[32]. فبالنسبة للمسلمين، كما هي الحال لجميع البشر، الجهاد الداخل هو الأصعب والأكثر نبلاً والذي يفيض أكبر معرفة للنفـس والصفح وبالطبع، الصدق مع النفس، لقد أظهرت الحياة اليومية وجهادها الأكبر للمسلمين الآن أنه من أصعب الأمور العيش في سبيل الله، في نور وشفافية وانسجام ومتطلبات روحية وصبر وسلام.

كان النبـي ﷺ يطلب ممن حوله من غير المقتنعين بصدق رسالته، أن ينظـروا في آيات الخلـق وأن يبحثوا عن المغزى في الوقـت الذي يجاهرون فيه أوهام الذات وغرورها، لقد علم المسلمين ـ الذين آمنوا بوجود الواحد الأحد ــ مواصلة جهادهم الداخلـي والتواضع وإدراك مـدى هشاشتهم، والسعي إلى أن يستمدوا الغذاء الروحي من ذكر الله، وكما ورد في القرآن، أن يدعـو الله بأن يثبت قلوبهـم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[33]. كان الرسول ﷺ يصلي ويدعو الله قائلاً: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك!»[34]. وهكذا، في وقت السلم كان بعض النـاس يبحثون عن الحقيقة وبعضهم الآخر يبحثون عن الإخلاص، في الوقت الذي كانوا جميعاً يعانون

من شكل جديد من الجهاد الداخلي الذي يتطلب الجهد والصبر وضمير حي على الدوام،وفي الوقت الذي يبدو فيه أن إمكانية التثبيت النهائي للدين الأخير قريب المنال، طُلب من كل منهم أن يعود إلى عالمه الداخلي لينشد النور أو المغفرة، ليجد السلام ورحمة الذي يتوب دائماً على الذين يأتون إليه ويعودون إليه، وقد ذكَّر الوحي النبي ﷺ بأنه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[35].

تلك الآيات عبرت عن الحاجة إلى العودة إلى الواحد الأحد حتى عندما بدا أن الناس قد أدركوا أخيراً صدق الرسالة، وبما أن ذلك كان بداية الجهاد الدائم ضد المظاهر، فقد كان على النبي ﷺ، مرة أخرى، أن يتصدى إلى توترات متناقضة، وهي الطريقة الوحيدة لتجاوز الذات والسمو إلى الله، وفيما كانت الأفواج تأتيه من كل مكان، فقد طُلِب منه العودة إلى عزلة القلب ومواصلة حوار مع الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد، وفيما كان النصر يأتيه في هذه الدنيا، فقد فهم أن عليه الاستعداد للرحيل، لترك حياته، والعودة ليكون قريباً من الواحد الأحد، وقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لاحقاً أن نزول تلك السورة كان إعلاناً عن نهاية رسالة النبي ﷺ، وفي الواقع، عن رحيله الوشيك.

حجة الوداع

في شهر رمضان من تلك السنة العاشرة تلقى النبي ﷺ علامة أخرى من الله، وأخبر ابنته فاطمة عنها: «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة وإنه قد عارضني العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب»[36]. بقي

أحـد أركان الإسلام الذي لم يقم به النبي ﷺ واقترب الوقت للاستعداد له، وانتشر الخبر على نطاق واسع بأن النبي ﷺ سيرأس الحج القادم إلى مكة، وفي الأسابيع اللاحقة انطلق على رأس ثلاثين ألفاً من حجاج المدينة، الذين انضم إليهم ثلاثة أضعاف عددهم من جميع أنحاء الجزيرة.

في مكـة قام النبي ﷺ بمختلف شعائـر الحج وأوضح للصحابة الذين كانـوا برفقته أنهم كانوا يحيون عبادة التوحيـد الخالص لأبيهم إبراهيم عليه السلام. كان الحـج، كما كانت عليه حياة النبي ﷺ كلها، عودة إلى المنبع، إلى الأصـل: عـودة إلى الله، الواحـد الأحد، على خطـوات النبي إبراهيم عليه السلام، الذي كان أول من بنى الكعبة، بيت الله، لعبادة الواحد الأحد، كان الصحابة يراقبون كل حركة يقوم بها النبي ﷺ ، الذي كان يقوم، في واقع الأمـر، بإرساء قواعد شعائر الحج علـى وجه الدقة، فقد قال لهم: «خذوا عنّـي مناسككم»[37]. وفي اليوم التاسع مـن ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة، خاطب النبي 144 ألفاً من الحجيج على جبل الرحمة[38]. تحدث في مقاطـع قصـيرة وكان رجال حوله يرددون كلماته كي يسمع كل من كان في الوادي كلامه[39].

كان محتوى الرسالة قوياً وعاطفياً، بدأ النبي ﷺ بالقول بأنه لا يدري إن كان سيلقاهم «في هذا المكان بعد عامهم هذا»[40]. ثم ذكرهم بقدسية أرواحهم وشرفهم ومالهم، وأوضح بأن عهد الجاهلية قد ولى وممارساته وصراعاتـه ومنافساتـه التي تقـوم على أساس القـوة والكسب. ومن ذلك الوقت أصبح المسلمون متحدين بالإيمان والأخوة والمحبة، التي تحولهم إلى شهـداء لرسالة الإسلام. ويجب ألا يقبلـوا في أي ظرف أن يكونوا «ظالمين أو مظلومـين»[41]، ويجب أن يعلموا أن النـاس متساوون أمام الله والتواضع

الــلازم لأنــه «كلكم لآدم وآدم من تــراب، إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»[42]. وذكَّر النبي ﷺ كافة المسلمين بحســن معاملة زوجاتهم وأضــاف: «اتقوا اللّه في النســاء»[43]. وأضاف، كأنمــا يدل على الطريق وأوضاعــه لجميع المؤمنين الموجودين معه ولجميع الذيــن سيتبعون تعاليمه عبر العصور: «تركــت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلــوا بعده أبداً: كتاب اللّه وسنة رسولــه»[44]. وبعد كل وصية كان يقول: «ألا هــل بلّغــت؟ اللهم فاشهد!» وفي نهاية الخطبــة، كان الحجاج يجيبون: «نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة». وأنهى النبي ﷺ خطبته بالقول: «اللهم فاشهد... وليبلغ الحاضر منكم الغائب».

كان النبي ﷺ حقاً شاهداً أمام الجماعة الروحية المسلمة، وفي تواصل معهــم في قلب الحج ـ الذي يقتضي هو ذاتــه البساطة ووحدة البشر أمام خالقهــم ــ أعاد الرســول ﷺ إلى الأذهــان النقطة الأساسيــة في رسالة الواحد الأحد: المساواة المطلقة للبشر أمام اللّه، بصرف النظر عن العِرق والطبقــة الاجتماعية أو الجنس، إذ إن الشيء الوحيد الذي يميزهم يكمن فيما يفعلون بأنفسهم، بذكائهم وصفاتهم والأهم من ذلك شيء، بقلوبهم. فمــن أي مــكان يأتون، سواء أكانوا عربــاً أم لا، وبصرف النظر عن لونهم أكان أسود أو أبيض أو أي لون آخر، ومهما كان عليه مركزهم الاجتماعي، أكانــوا أغنيــاء أم فقراء، أكانوا رجــالاً أم نساءً، فــإن البشر يتميزون بما يولوه لقلبهم مــن اهتمام، وتربيتهم الروحية، السيطرة على الأنا وازدهار الإيمــان والكرامة والطيبة ونبل الــروح وعلى سبيل التماسك، الالتزام بين إخوانهــم في البشريــة لمبادئهم، فأمــام آلاف الحجاج مــن كافة الأصول، الرقيــق ورؤساء القبائل، النساء والرجال، شهد النبي ﷺ أنه أدى مهمته

في ضوء رسالة الواحد الأحد، وشهد جميع المؤمنين بصوت واحد أنهم استلموا الرسالة وفهموا معناها ومحتوياتها.

بعد بضع ساعات، نزل وحي مفاجئ على النبي ﷺ تضمن الآية التي تؤكد أن مهمته قاربت نهايتها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[45]. كانت آخر مرحلة من مراحل النبوة قد قاربت على الانتهاء وعاد الرسول ﷺ إلى المكان الذي اختاره، بيته الذي يتجاوز هذه الحياة، بالقرب من الواحد الأحد.

obeikandi.com